توظيف اللغة العربية في ترجيح معاني الآيات القرآنية

د. مالك بوعمرة سونة

مدخل للدراسة:

القرآنُ الكريم هو آخر الكتب السَّماوية التي أنزلها الله على أنبيائه، ومن أجل ذلك فقد احْتوى على ما به قوامُ حياتهم ونفعهم في معادهم، غير أنَّ ذلك لا يتأتَّى لهم إلا إذا تمكَّنوا من فهم المعاني التي يرنو لتبليغها، والمقاصد التي يصبوا لتحقيقها، ولئنْ كان بعض ذلك يسيرا ويَفْهَمُهُ الكثير، فإنَّ كثيرا منه يحتاج إلى بيان وتفسير.

وأجود التفسير ما كان قرآناً أو سنةً، لأنَّ الله تكلم بكتابه مخاطبا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، والمتكلم بالشيء والمُوَجَّهُ إليه أعلم به من غيرهما، ويأتي بعد ذلك الصحابة الكرام لأنَّهم كانوا في فهم القرآن فرسان الميدان، ولتحقيق معانيه في غاية الإتقان.

ومع مرور الأزمان وتعاقب الدهور والأعوام، تعسَّرَ على كثير من الناس فهم تصاريف الكلام، ولم يسعفهم ما بين أيديهم من النصوص والآثار على الاهتداء إلى معاني آيات الرحمن، وعندئذ لم يكن ثمة مَنَاصٌ من الرجوع إلى اللغة العربية لكشف الأسرار وهتك الحُجُب والأستار، لأنها الوعاء الذي أنزل الله فيه كلامه، واللسان الذي اختاره لخير كتبه.

وقد فَطِنَ المتقدمون إلى هذه الحقيقة الكبرى، فاعتنوا في التفسير باللغة شعرا ونثرا، لا لبيان معاني الآيات فحسب، وإنما لاختيار أقومها قيلا وتوجيه أهداها سبيلا. ولأجل ذلك فقد كان الهدف من هذه الدراسة بيان تلك المزية، بغية إبراز الدور الوظيفي للغة العربية - في مستويات مختلفة- في تمحيص معاني الآيات القرآنية لاختيار أرجحها واعتماد أقواها، وذلك بالتمثيل والتدليل والشرح والتحليل تحت عنوان: توظيف اللغة العربية في ترجيح معاني الآيات القرآنية.

أولا: أمثلة عن الإعراب.

١- قال تعالى [إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ] القمر(١٩).

خلاصة الأقوال في كلمة نحس هي: أنه كان يوم شؤم وشر، وقيل عذاب وهلاك، وقيل يومٌ أربعاء وقد كانوا يتشاءمون به، وقيل يومٌ بارد، وقيل يومٌ شديد(١).

وأكثر المفسرين على أن الأصح من معنى الكلمة أنه يوم شؤم وشر، وَلِيَتِمَّ لهم ترجيح ذلك فيجب عليهم تقوية القول أو توهين غيره، ولأن النحس بمعنى الشؤم مشهور في اللغة(٢) فقد استعمل بعضهم اللغة لبيان أن تفسيره بالشدة لا يصح، وفي ذلك يقول الطبري:

"ومن تأوّل ذلك كذلك فإنه يجعله من صفة اليوم، ومن جعله من صفة اليوم، فإنه ينبغي أن يكون قراءته بتنوين اليوم، وكسر الحاء من النحْس، فيكون" في يَوْم نَحِس " كما قال جلّ ثناؤه " في أيَّام نَحِسَاتٍ " ولا أعلم أحدا قرأ ذلك كذلكَ في هذا الموضع، غير من قال بذلك القول، وهو الحسن" (٣). ومما يؤكد ضُعْفَ هذا القول من اللغة أيضا؛ أن كلمة مستمر بعدها فسرت بتفاسير منها:

أنها من قولهم مَرَّ الحبل إذا قوي وصلُب واشتد، وأَمْرَرْتُهُ أنا إذا فتلته فتلا شديدا، أو المِيرة أي القوة (٤) وكلها دال على الشدة، فلو فسر النحس بالشدة لكان المعنى: في يوم شديد شديد، ولا يصح هذا في الكلام البليغ فكيف بالكلام المعجز؟

ومما يؤكد ترجيح تفسير النحس بالشؤم في اللغة أيضا أن الإمام الطاهر ابن عاشور قال:

ويجوز أن يكون "مستمر" مشتق من المرارة، والمرارة مستعارة للكراهية والنفرة، فهو وصف كاشف لأن النَّحس مكروه. (٥)

٢- قال تعالى [قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ] الطلاق (١٠-١١)

اختلف المفسرون في المراد من كلمة "ذكرا" تبعا لاختلافهم في كونها مع رسولا شيئا واحدا أم شيآن مختلفان، فمن ذهب إلى أن "رسولا" منصوب بفعل محذوف تقديره "بعثَ رسولاً" أو "أرسلَ رسولاً"، فالذكر عنده غير الرسول.

ومن رأى أنهما شيآن مختلفان – وهم الجمهور- فقد اختلفوا في المراد بالذكر إلى أقوال:

فقيل المراد به "القرآن"، وهو قول الأكثر، وقيل "الشرف" ويكاد يكون مثل الأول، وقيل "رسالة"، وقيل "جبريل" وقيل "محمد صلى الله عليه وسلم"(٦).

وقد اختار في البحر القول الأول وقال إنه الأظهر، واحتمل في توجيهه احتمالات متعددة، وأيده ابن عاشور بأنه سمي بذلك في آيات كثيرة، وضعف أبو حيان القول بأنها رسالة باللغة قائلا:

"يُبْعِدُهُ قوله بعده "يتلوا عليكم"، والرسالة لا تسند التلاوة إليها إلا مجازا"، كما رد قول الزمخشري تبعا للكلبي بأن المراد به "جبريل"، وأنه أبدل من " ذكرا" لأنه وُصِفَ بتلاوة آيات الله، فكان إنزاله في معنى إنزال الذكر، بأنه لا يصح لتباين المدلولين بالحقيقة، ولكونه لا يكون بدل بعض ولا بدل اشتمال(٧).

ومال ابن جرير إلى تصويب القول بأن المراد بالذكر الرسول وقال إنه عطفٌ بيانٍ عنه وتفسيرا له واستظهر عليه بحركة النصب(٨).

والظاهر أن الطبري يعني أنه بدل كل من كل، إلا أن ابن عاشور وغيره ذهبوا إلى أنه بدل اشتمال عنه فقال: رسولا بدل من "ذكرا" بدل اشتمال، لأن بين القرآن والرسول محمد صلى الله عليه وسلم ملازمة وملابسة، فإن الرسالة تحققت له عند نزول القرآن عليه(٩).

وبناء عليه فإن النصب لا يُشْكِلُ لأنه باق على البدلية، ويصير المعنى قد أنزلنا إليكم قرآنا عن طريق رسول يتلو عليكم آياته المبينات.

ثانيا: أمثلة عن اسم الإشارة.

٣- قال تعالى [إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى] الأعلى١٨.

اختلف المفسرون في المشار إليه بقوله " هذا " إلى أقوال، فقد قيل إن المراد به القرآن، وقيل المراد به أحكام هذه السورة، وقيل المراد به السورة نفسها، وقيل المراد به قوله تعالى [قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى] الأعلى ١٤-١٧(١٠)

ولأنَّ الآية ليس فيها حديث صحيح صريح في المقصود بالإشارة، وكل الأقوال محتملة فلابد من إيجاد القول الراجح بينها، وهو ما تَكَفَّلَتْ به اللغة التي اعتمد عليها كل من الطبري وابن عطية، فقد قال الأول:

"هذا" إشارة إلى حاضر، فلأن يكون إشارة إلى ما قرب منها أولى من أن يكون إشارة إلى غيره".

وقال الثاني: "وهذا هو الأرجح لقرب المشار إليه بهذا" (١١).

قال ابن كثير معلقا على اختيار ابن جرير " وهذا الذي اختاره حسن قوي"(١٢).

٤- قال تعالى [هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ] ص(٣٩)

اختلف المفسرون أيضا في المشار إليه بقوله "هذا عطاؤنا" ما هو؟ إلى مجموعة أقوال:(١٣)

أحدها: ما تقدم من الملك بتسخير الريح والشياطين، والمعنى بعده: أُمنن على من شئت من الجن بإطلاقه، أو امسك من شئت منهم في عمله من غير حرج عليك فيما فعلته بهم.

الثاني: أن أصل الكلام: هذا عطاؤنا بغير حساب فامنن أو أمسك، والمعنى بعده إما: "بغير جزاء"، أو "بغير قلة".

والثالث: أن " هذا " إشارة إلى مضمر غير مذكور، وهو ما أوتي عليه الصلاة والسلام من القوة على الجماع، وقد رجح الطبري القول الأول اعتمادا على السياق، وهو أن المشار إليه جاء بعد ذِكرِ جملة مما أعطاه الله تعالى فقال:

"وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أنه عني به ما أعطاه من المُلك، وذلك أنه جل ثناؤه ذكر ذلك عقيب خبره عن مسألة نبيه سليمان صلوات الله وسلامه عليه إياه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، فأخبر أنه سخر له ما لم يسخر لأحد من بني آدم، وذلك تسخيره له الريح والشياطين"(١٤). "واعتمد أبو حيان قاعدة لغوية أخرى في رد القول الثالث المروي عن ابن عباس، وهي أن اسم الإشارة لا يرجع على غير مذكور مع وجود مذكور يمكن إرجاعه إليه فقال:

وقال ابن عباس: إشارة إلى ما وهبه من النساء وأَقْدَرَهُ عليهن من جماعهن، ولعله لا يصح عن ابن عباس، لأنه لم يَجْرِ هنا ذكر النساء، ولا ما أوتي من القدرة على ذلك] (١٥).

ثالثا: أمثلة عن الصيغ الصرفية ومعانيها.

٥- قال تعالى [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ ...] البقرة (٢٤٣).

النظر في هذه الآية الكريمة من جهتين اثنتين:

الأولى: أصل الكلمة هل هو بمعنى العدد أم بمعنى الائتلاف ضد الاختلاف على قولين.

وقد ذهب جمهور المفسرين واللغويين إلى الأول، ولم يُرْوَ القول الثاني إلا عن ابن زيد وحده(١٦).

وظاهر كلام الزمخشري وأبي حيان والسمين الحلبي أن قول ابن زيد لا يستقيم مع قواعد اللغة، فقد قال الأول إنه من بدع التفاسير، وأقره الثاني على ذلك مع كثرة ما يخالفه فيه، ونقله الثالث بدون أن يحكم عليه، وذلك يشعر أنه كالموافق له(١٧). أن أأن

وقال النحاس إن هذا القول ليس بمعروف(١٨)، وضعفه أبو حيان من جهة المعنى أيضا فقال:

وقال القاضي: كَوْنُهُ جَمْعُ ألفٍ من العدد أولى، لأن ورود الموت عليهم وهم كثرة عظيمة تفيد مزيد اعتبار، وأما وروده على قوم بينهم ائتلاف فكوروده وبينهم اختلاف في أن وجه الاعتبار لا يتغير(١٩)، وهو وجيه جدا.

أما الجهة الثانية فهي التي يبرز فيها ما أنجزت الدراسة لبيانه بوضوح، وهي مبنية على رأي الأغلب من أن المراد بألوف هو العدد، فقد اخْتُلِفَ فيه إلى أقوال كثيرة كالآتي:

١) فوق عشرة آلاف:

ستمائة ألف، تسعون ألفا، ثمانون ألفا، سبعون ألفا، أربعون ألفا، بضع وثلاثون ألفا، ثلاثون ألفا،

والثلاثة الأخيرة أكثر وأشهر.

٢) عشرة آلاف فما دونها:

ثمانية آلأف، سبعة، أربعة، ثلاثة.

ولا شك أن كثرة الأقوال مُشْعِرٌ بانعدام دليل في المسألة يُعْتَمَدُ عليه، وهو ما دفع البعض إلى القول بأنه يحتمل أن لا يراد بالألف جمع العدد وإنما يراد به مطلق التكثير كقول القائل: جئتك ألف مرة، وهو لا يريد حقيقة العدد إنما يريد جئتك مرارا كثيرة لا تكاد تحصى من كثرتها، على نحو قوله تعالى [إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم] التوبة(٢٤٣) (٢٠).

وهنا يأتي دور اللسان الذي نزل به القرآن، حيث اعتمد عليه أكثر أهل التفسير وأهل اللغة لبيان الراجح في المسألة، وهم وإن لم يجزموا بعدد معين فقد حكموا بأنه يتعين أن يكون أكثر من عشرة آلاف.

قال الماوردي: والألوف تستعمل فيما زاد على عشرة آلاف.

وقال ابن عطية عن القول الثاني: وهذا يُضَعِّفُهُ لفظ أُلُوفٌ لأنه جمع الكثير.

وقال البغوي: الأولى قول من قال: إنهم كانوا زيادة على عشرة آلاف، لأن ألوفا جمع الكثير، ولا يقال لما دون العشرة الآلاف ألوف.

وتعقبه أبو حيان قائلا: وهذا ليس كما ذكر، فقد يستعار أحد الجمعين للآخر، وإن كان الأصل استعمال كل واحد منهما في موضوعه.

وهو في ذلك موافق لما رآه شيخ المفسرين إذ قال:

والصواب أنهم أزيد عن عشرة آلاف، لأن الله أخبر أنهم كانوا ألوفا، وما دون العشرة آلاف لا يقال لهم: " ألوف". بل" آلاف"، ولا يجوز أن يقال: خمسة ألوف، أو عشرة ألوف.

وإنما جمع قليله على" أفعال"، ولم يجمع على" أفعل" مثل سائر الجمع القليل الذي يكون ثاني مفرده ساكنا للألف التي في أوله.

وشأن العرب في كل حرف أوله، ياء أو واو أو ألف، جمع قليله على أفعال، كما جمعوا "الوقت" "أوقاتا" "اليوم" "أياما"، و"اليسر" "أيسارا" للواو والياء اللتين في الأول، وقد يُجْمَعُ أحيانًا على" أفعل"، إلا أن الفصيح من كلامهم ما ذكرنا، ومنه قول الشاعر:

كانوا ثلاثة آلف وكتيبة

ألفين أعجم من بني الفدام(٢١).

٦- قال تعالى [وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا...] النساء٥

ذكر المفسرون في المراد بالسفهاء أقولا كثيرة، فقيل هم النساء والصبيان، وقيل الصبيان خاصة، وقيل اليتامى، وقيل هم المحجور عليهم، وقيل كل من اتصف بالصفة، وقيل المبذرون المال بالإنفاق فيما لا ينبغي، وقيل هم الخدم(٢٢).

وليس المقام بيان ما عناه الله تعالى بقوله "السفهاء" فذلك محله كتب التفسير خاصة، ولكن المقام بيان الاعتماد على اللغة في ترجيح قول أو تضعيف غيره.

وقد اعتمد كثير من أهل التفسير واللغة على قواعد الصرف في تضعيف القول بأن المراد بالسفهاء في الآية النساء خاصة.

قال الطبري: وأما قول من قال: " عنى بالسفهاء النساء خاصة "، فإنه جعل اللغة على غير وجهها، وذلك أن العرب لا تكاد تجمع" فعيلا " على" فُعَلاء " إلا في جمع الذكور، أو الذكور والإناث. وأما إذا

أرادوا جمع الإناث خاصة لا ذكران معهم، جمعوه على: " فعائل " و" فعيلات "، مثل: " غريبة "، تجمع "غرائب " و" غريبات"، فأما" الغُرَباء"، فجمع" غريب"(٢٣).

وتبعه على ذلك ابن عطية على كثرة ما يَسْتَدْرِكُ عليه فقال: وقول من خصها بالنساء يُضَعَّفُ من جهة الجمع، فإن العرب إنما تجمع فعيلة على فعائل أو فعيلات(٢٤).

ونقل أبو حيان كلام ابن عطية وتعقبه بقوله:

"ونقلوا أن العرب جمعت سفيهة على سفهاء، فهذا اللفظ قد قالته العرب للمؤنث، فلا يُضَعَّفُ قول مجاهد.

وإن كان جمع فعيلة الصفة للمؤنث نادرا لكنه قد نقل في هذا اللفظ خصوصا.

وتخصيص ابن عطية جمع "فعيلة" بـ "فعائل" أو "فعيلات" ليس بجيد، لأنه يَطَّرِدُ فيه فعال كظريفة وظراف، وكريمة وكرام، ويوافق في ذلك المذكر. وإطلاقه "فعيلة" دون أن يخصها بأن لا يكون بمعنى مفعولة نحو: قتيلة، ليس بجيد، لأن فعيلة لا تجمع على فعائل(٢٥).

وقد كان بالإمكان ألا يُلْتَفَتَ إلى قول أبي حيان وزعمه أنه نقل عن العرب أنها جمعت سفيهة على سفهاء لاسيما أنه حكم عليه بالندرة، ولا يحمل عليها كلام الله تعالى، لولا أنه مروي عن صحابيين جليلين هما أبو أمامة وابن عمر رضي الله عنهما.

قال ابن عطية: "وروي عن عبد الله بن عمر أنه مرت به امرأة لها شارة فقال لها: وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الآية"(٢٦).

وقد استند أبو أمامة رضي الله عنه في ذلك على حديث للنبي صلى الله عليه وسلم يقول فيه:

«إن النساء سفهاء إلا التي أطاعت قيمها»، وفي لفظ آخر: «ألا إنما خلقت النار للسفهاء، -يقولها ثلاثا- ألا وإن السفهاء النساء، إلا امرأة أطاعت قيمها»"(٢٧).

وهذا الاعتراض وارد فيما لو صح الحديثين أما إن لم يصحا فالمعتبر ما قاله أئمة اللغة.

رابعا: أمثلة عن أسماء العدد.

٧- قال تعالى [... مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ...] .

اختُلِفَ في مرجع الضمير في (فيهن) إلى قولين مشهورين:

القول الأول: يرجع إلى الأشهر الاثنا عشر، وهو مروي عن ابن عباس وغيره.

القول الثاني: يرجع إلى الأشهر الأربعة، وهو مروي عن قتادة وأكثر أهل التفسير.

وقد اعتمد جل القائلين بأنها عائدة على الأشهر الأربعة على اللغة وذلك من ثلاثة أوجه كالآتي:

الوجه الأول:

قال ابن الأنباري: العرب تعيد الهاء والنون على القليل من العدد، والهاء والألف على الكثير منه،

والقلَّة: ما بين الثلاثة إلى العشرة، والكثرة: ما جاوز العشرة. يقولون: وجهتُ إليك أكبُشاً فاذبحْهُنَّ، وكباشاً فاذبحها فلهذا قال: " مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ" وقال: " فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ" لأنه يعني بقوله تعالى: « فِيهِنَّ» الأربعة(٢٨).

وهذا الذي ذكره عن العرب ذكره أيضا: الكسائي والفراء والنحاس وابن جرير وابن عطية وابن الجوزي وأبو حيان وابن عاشور(٢٩).

الوجه الثاني:

أن القاعدة في الضمير عوده على أقرب مذكور، والأربعة هي الأقرب ذكرا(٣٠).

الوجه الثالث:

لأنها أنسب بسياق التحذير من ارتكاب الظلم فيها، وإلا لكان مجرد اقتضاب بلا مناسبة(٣١).

ولأن هذا القول يشكل عليه أن الظلم ممنوع في الأَشْهُرِ كلها فما جدوى تخصيص الأربعة به؟ فقد أجاب أصحابه على ذلك بأجوبة منها:

١- نُهِيَ عن المظالم فيها تشريفا لها وتعظيما بالتخصيص بالذكر، وإن كانت المظالم منهيا عنها في كل زمان(٣٢).

٢- عظم حرمتهن، كما عظم أشهر الحج بقوله تعالى: " فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج"، البقرة (١٩٧) وإن كان ذلك محرما في سائر الشهور(٣٣)

٣- ليتبين بالنهي فيها عِظَمُ حُرْمَتها كما قال: "حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ" ثم قال: "وَالصَّلاةِ الْوُسْطى" فعظِّمت، ولم يرخص في غيرها بترك المحافظة(٣٤)

ومن المفيد بيان أن كثيرا من القائلين بهذا القول أقروا بصحة عود ضمير الكثير على القليل والعكس، إلا أنهم بَيَّنُوا أن ذلك ليس الأشهر في كلام العرب، ولذلك قال الطبري: إن ذلك وإن كان جائزًا، فليس

الأفصحَ الأعرفَ في كلامها، وتوجيهُ كلام الله إلى الأفصح الأعرف، أولى من توجيهه إلى الأنكر(٣٥).

وقال ابن الأنباري بعد كلامه السابق: فإنه ممكن، لأن العرب ربما جعلت علامة القليل للكثير، وعلامة الكثير للقليل(٣٦).

وقال الفراء: ويَجوز في كل واحد ما جاز في صاحبه، إلا أن المؤْثَر ما فسَّرت لك(٣٧).

فهم لا يقتصرون على الترجيح بالصواب في اللغة، بل يتخيرون الأشهر والأكثر صوابا من غيره تنزيها لكلام الله تعالى عن أن يحمل على الأقل الأنكر.

ويُؤَيِّدُ هذا أن الله غاير بين التعبيرين فقال في الاثني عشر: منها أربعة حرم، ثم قال فلا تظلموا فيهن ولم يقل فيها.

وحمل ذلك على التفنن في الكلام كما زعم البعض لا يظهر كل الظهور في مثل هذا الموضع(٣٨)..

خامسا: أمثلة عن التعريف والتنكير.

٨- [... تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ...] المائدة ١٠٥.

اختلف أهل التفسير في المقصود بالصلاة هنا إلى ثلاثة أقوال كالآتي:

١ - من بعد صلاة العصر.

٢ – من بعد صلاة الظهر أو العصر.

٣ – من بعد صلاة أهل دينهما وملتهما.

وضَعَّفَ بَعْضُهُمْ القول الثالث باللغة واختاروا أنها العصر بأدلة أخرى، والذي يهمنا هنا هو تضعيف القول الأخير، وفي ذلك يقول ابن جرير:

"وأولى القولين بالصواب أنها صلاة العصر، لأن الله تعالى عَرَّفَ الصلاة في هذا الموضع بإدخال الألف

واللام فيها، ولا تدخلهما العرب إلا في معروف، إما في جنس، أو في واحد معهود معروف عند المتخاطبين، وصلوات اليهود والنصارى ليست واحدة، فإذ كان ذلك كذلك، صح أنها صلاة بعينها من صلوات المسلمين"(٣٩).

٩- [وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ...] البقرة ٢٤٨

وهذه الآية تشبه الآية التي سبقتها، حيث استعين فيها بالتعريف على تعيين الراجح من المرجوح، وبيان ذلك أن أهل التفسير اختلفوا في المراد بالتابوت على قولين:

١ - هو تابوت من عهد موسى وهارون يتوارثونه، سلبهم إياه ملوك من أهل الكفر به.

٢- تابوت كان في البرية، وكان موسى صلى الله عليه وسلم خلفه عند فتاه يوشع، فحملته الملائكة حتى وضعته في دار طالوت.

ورجح الطبري أيضا القول الأول قائلا:

وأولى القولين في ذلك بالصواب هو أنه تابوت كان عند عدو لبني إسرائيل كان سلبهم إياه.

وذلك لأن نبيهم قال لهم: " إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت"، و"الألف واللام" لا تدخلان في مثل هذا من الأسماء إلا في معروف عند المتخاطبين به.

فقد علم بذلك أن معنى الكلام: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت الذي قد عرفتموه؛ ولو كان تابوتا غير معلوم عندهم لقيل: إن آية ملكه أن يأتيكم تابوت فيه سكينة من ربكم(٤٠).

ومال إليه ابن عطية تعريضا فقال:

وكان أمر التابوت مشهورا عندهم في تركة موسى(٤١).

سادسا: أمثلة عن الضمائر.

١٠- قال تعالى [فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ...].

هذه المسألة تدل فعلا على أهمية اللغة العربية وتمسك كثير من أهل التفسير بها في ترجيح الأقوال رغم أنها أحيانا تورث إشكالات كبيرة من جهة المعنى.

وبيان ذلك أن العلماء اختلفوا في مرجع ضمير الهاء من قوله [إلا ذرية من قومه] إلى قولين ينبني على كل واحد منهما تفسيران:

القول الأول: الضمير يعود على موسى، والمراد بقومه بنو إسرائيل.

القول الثاني: الضمير يعود على فرعون، والمراد بقومه الأقباط.

والقول الأول مروي عن ابن عباس وذهب إليه الفراء وابن جرير وأبو حيان وأبو زهرة من المتأخرين(٤٢)، واختار الثاني ابن عطية وابن الجوزي وابن كثير، وهو رواية عن ابن عباس أيضا(٤٣).

وقد اعتمد القائلون بأن المراد بالضمير موسى على جملة أدلة أكثرها من اللغة أجمل أبو حيان ثلاثة منها بقوله:

" والظاهر أن الضمير في قومه عائد على موسى، وأنه لا يعود على فرعون، لأن موسى هو المُحَدَّثُ عنه في هذه الآية، وهو أقرب مذكور. ولأنه لو كان عائدا على فرعون لم يظهر لفظ فرعون، وكان

التركيب على خوف منه ومن ملإهم أن يفتنهم"(٤٤).

وعلى هذا التفسير يتعين البحث عن عود ضمير الجمع في ملإهم، ولذلك قال ابن عطية وهو من المخالفين: " ولاعتقاد الفراء وغيره عود الضمير على موسى تَخَبَّطُوا في عود الضمير في مَلَائِهِمْ "(٤٥).

وقد قالوا بأنه جُمِعَ لأن ذكر فرعون وهو الملك يتضمن الجماعة والجنود، كما تقول جاء الخليفة وسافر الملك وأنت تريد جيوشه معه، وإما أن يكون المعنى على خوف من آل فرعون وملئهم وهو من باب ["وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ"] يوسف:٨٢(٤٦).

والتوجيه الأول مقبول وإن كان خلاف الظاهر(٤٧)، لكن التنْظِيرَ بمثال القرية لا يَتَّجِهُ، لأن إسقاط المضاف في قوله [وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ] يوسف:٨٢، سائغ بسبب ما يعقل من أن «اسأل القرية» لا تسأل، ففي الظاهر دليل على ما أضمر، وأما هاهنا فالخوف من فرعون مُتَمَكِّنٌ لا يحتاج معه إلى إضمار(٤٨)

أما الفريق الثاني فقد استدل بدليلين بلاغيين بنى عليهما وجهين تفسيريين وذلك كالآتي(٤٩):

البلاغة تقتضي أن يستثنى الأقل من الأكثر، وهيئة قوله " فَما آمَنَ" يعطي تقليل المؤمنين به لأنه نفى الإيمان ثم أوجبه للبعض ولو كان الأكثر مؤمنا لأوجب الإيمان أولا ثم نفاه عن الأقل، والمعروف من أخبار بني إسرائيل أنهم كانوا قوما قد تقدمت فيهم النبوات ونَالَهُمْ من فرعون ذلٌ رَجَوْا كشفه على يد مولود يخرج فيهم يكون نبيا، فلما جاءهم موسى عليه السلام اتَّبَعُوهُ، ولم يُحْفَظْ قَطُّ أنَ طائفةً من بني إسرائيل كفرت به فكيف تعطي هذه الآية أن الأقل منهم كان الذي آمن؟

كما أن السياق يؤكد ذلك أيضا، فقد تقدم في السورة من محاورة موسى ورده عليهم وتوبيخهم على قولهم هذا سحر.

والحكم على الخلاف في هذه المسألة ليس بالأمر الهين لاسيما مع الأوجه التي ذكرها القائلون بأن الضمير يعود على فرعون.

إلا أن اللغة تقتضي ترجيح القول الأول من الأوجه الثلاثة المذكورة، أما الجواب عن إشكال القلة التي وُصِفَ بها من آمن مع موسى مع أن الوقائع تدل أنهم كثير؛ فيمكن أن نستفيده مما ذكره الشيخ أبو زهرة في كتابه زهرة التفاسير إذ يقول فيه:

" ويقول قائل إن الضمير في " قومه " يعود إلى موسى، وقوم موسى هم بنو إسرائيل، وذكر الذرية دون عمومهم لأن الذرية تطلب الحرية وتبتغيها، وشيوخهم غرست في نفوسهم العادات والعبادات المصرية القديمة ورضوا بالدون من العذاب كما يبدو ذلك في قصصهم مع موسى، وفي قولهم [اجعل لنا إلاها] ومن عبادتهم العجل، ومن امتناعهم عن دخول الأرض المقدسة، وقد رأى ذلك ابن جرير ونحن نتبعه في رأيه". (٥٠)

هذه عشرة أمثلة يتبين لنا فيها بوضوح كيف يمكن توظيف اللغة بمستوياتها المختلفة حكما بين مختلف الأقوال التفسيرية للآيات القرآنية، ويمكن أن نضيف إليها أمثلة أخرى كثيرة جدا، لكن ما ذكر دليل على ما لم يذكر، وفيه كفاية للدلاة على المراد، وليقس ما لم يقل.

الهوامش

(١) معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، تح/عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٨. (٨٩/٥)، النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، الشهير بالماوردي، تح/ السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية – بيروت، (٤١٤/٥)، معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تح/ بد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ (٣٢٤/٤)، زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تح/ عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ (٢٠٠/٤)، «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر– تونس،١٩٨٤م (١٩٢/٢٧)، جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ، تح/ رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، (٥٣٦/١)، لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الإفريقى، دار صادر، بيروت، ط٣، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ، (١٦٩/٥).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٨٩/٥)، جمهرة اللغة (٥٣٦/١)

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تح/ عبد الله بن عبد المحسن التركي،

دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، (١٣٤/٢٢).

(٤) جامع البيان (١٢٨/٢٢)، جمهرة اللغة (١/ ٥٣٦).

(٥) التحرير والتنوير (٣٣٧/٢٨).

(٦) زاد المسير (٣٠٣/٤)، تفسير البغوي (١١٤/٥)، النكت والعيون (٣٦/٦)، معاني القرآن وإعرابه (١٨٨/٥).

(٧) ومع أن لفظ الإنزال يلائمه لقوله تعالى [نزل به الروح الأمين] فإنه يبعده أيضا قوله يتلو من بعد، لأنه لا يستقيم وصف جبريل بأنه يتلوا الآيات على الناس.

(٨) جامع البيان (٧٦/٢٣).

(٩) التحرير والتنوير (٣٣٧/٢٨).

(١٠) النكت والعيون (٢٥٦/٦)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧ هـ، (٧٤١/٤)، اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني ، تح/ عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط١، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م، (٣٧٥/٨).

(١١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي ، تح/ عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٢ هـ، (٤٧١/٥).

(١٢) تفسير القرآن العظيم (٣٧٥/٨).

(١٣) النكت والعيون (١٠٠/٥).

(١٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن(١٠٠/٢٠)

(١٥)البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تح/ صدقي محمد جميل، دار الفكر- بيروت، ط ٤٢٠هـ (١٥٨/٩).

(١٦)النكت والعيون (٣١٢/١)، الكشاف (٢٩٠/١)، المحرر الوجيز (٣٢٨/١)، البحر المحيط (٥٦١/٢)، معاني القرآن للنحاس (٢٤٥/١)، تهذيب اللغة (٢٧٣/١٥)، لسان العرب (٩/٩).

(١٧) المراجع السابقة، وينظر الدر المصون في علوم الكتاب المكنون(٥٠٦/٢).

(١٨) معاني القرآن، أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد ، تح/ محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى - مكة المرمة، ط١، ١٤٠٩هـ (٢٤٥/١).

(١٩) البحر المحيط (٥٦٢/٢).

(٢٠) البحر المحيط (٥٦١/٢).

(٢١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٢٤/٤).

(٢٢) معاني القرآن وإعرابه (١٣/٢)، تفسير البغوي (٥٦٦/١)، المحرر الوجيز(٩/٢)، البحر المحيط (٥١٥/٣)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ، تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، تح/محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م،(١٨٧/٢)، اللباب في علوم الكتاب (١٨٢/٦).

(٢٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٩٥/٦).

(٢٤) المحرر الوجيز(٩/٢.

(٢٥) البحر المحيط (٥١٥/٣).

(٢٦) المحرر الوجيز(٩/٢).

(٢٧) تفسير القرآن العظيم (١٨٨/٢)، اللباب في علوم الكتاب (١٨٢/٦).

(٢٨) زاد المسير في علم التفسير (٢٥٧/٢).

(٢٩) معاني القرآن للفراء (٤٣٥/١)، معاني القرآن للنحاس (٢٠٦/٣)، جامع البيان (٤٤٧/١١)، المحرر الوجيز(٣١/٣)، زاد المسير (٢٥٧/٢)،

البحر المحيط (٤١٥/٥)، التحرير والتنوير (١٨٥/١٠).

(٣٠) التحرير والتنوير (١٨٥/١٠).

(٣١) نفس المرجع السابق و الصفحة.

(٣٢) المحرر الوجيز (٣١/٣)

(٣٣) البحر المحيط في التفسير (٤١٥/٥).

(٣٤) معاني القرآن للفراء (٤٣٥/١).

(٣٥) جامع البيان (٤٤٧/١١).

(٣٦)زاد المسير (٢٥٧/٢).

(٣٧) معاني القرآن١/٤٣٥).

(٣٨) التحرير والتنوير(١٨٦/١٠).

(٣٩) جامع البيان (٧٩/٩).

(٤٠) جامع البيان (٧٩/٩).

(٤١) المحرر الوجيز (٣٣٣/١)

(٤٢) معاني القرآن للفراء (٤٧٦/١)، جامع البيان (٢٤٧/١٢)،البحر المحيط (٩٣/٦)، زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي، بيروت، (٣٦٢١/٧).

(٤٣) المحرر الوجيز(١٣٧/٣)، زاد المسير في علم التفسير (٣٤٤/٢)، ،تفسير القرآن العظيم(٢٥٠/٤)، زهرة التفاسير.

(٤٤) البحر المحيط (٩٤/٦).

(٤٥) المحرر الوجيز(١٣٧/٣).

(٤٦) معاني القرآن للفراء (٤٧٦/١).

(٤٧) قال ابن كثير: [ومن قال إن الضمير في قوله وملئهم عائد إلى فرعون وعظم الملك من أجل اتباعه أو بحذف آل فرعون وإقامة المضاف إليه مقامه فقد أبعد وإن كان ابن جرير قد حكاه عن بعض النحاة] تفسير القرآن العظيم (٢٥١/٤).

(٤٨) المحرر الوجيز(١٣٧/٣).

(٤٩) المحرر الوجيز(١٣٧/٣)، تفسير القرآن العظيم(٢٥٠/٤).

(٥٠) زهرة التفاسير (٣٦٢٢/٧).